مصادر الباحث في التاريخ القديم

(نموذج المغرب)(*)

ذ. عبد الله فيلال(**)

لاشك أن المهتم بالعلوم الانسانية بصفة عامة وعلم التاريخ بصفة خاصة، تجده يردد في قرارة نفسه مرارا التساؤل التالي : لماذا التاريخ كعلم، ولماذا الاهتمام به في حد ذاته ؟

بالطبع، إن التاريخ هو جزء من العلوم الانسانية، ولكنه، وكما أشار إلى ذلك المؤرخ المعروف هرنشو[1] ليس علم معاينة وتجربة كالعلوم الدقيقة، ولكنه علم نقد وتحقيق، وإن كانت اقرب العلوم الطبيعية شبها به الجيولوجيا. فإذا كان عالم الجيولوجيا يدرس الأرض كما هي ليفسر التحولات التي أعطتها شكلها الحالي، فالمؤرخ يتناول بالتحليل الحضارة البشرية من خلال المعيش اليومي للانسان، ومن خلال مراسيمه الاحتفالية المتمثلة في العادات والتقاليد، من خلال معتقداته وفنونه، ومن خلال الآثار المتخلفة عن الماضي (سكن، معابد، قصور)، ليفسر بواسطتها،

(*) هذا المقال، رغم طابعه ا لأكاديمي، هو محاولة تتوخى، في قالب مبسط، التعريف بهذا الجانب الذي يقدم غالبا كتوطئة للأبحاث الأكاديمية المختصة ــ وذلك كمساهمة متواضعة خدمة للباحثين غير المتخصصين، ولطلبتنا بالدرجة الأولى. كما نود أن نشير، بالمناسبة، أن هذا المقال هو، بالطبع، حصيلة قراءات متعددة ومن مصادر مختلفة (مؤلفات، دوريات)، ذكرنا بعضها في المتن والهوامش، وقد نكون أغفلنا بعضها، لكن عن غير قصد. على أي، نحيل على مجلتي «هسبريس تمودة» و«نشرة الاركيولوجيا المغربية» (B.A.M.) حيث يمكن الاطلاع على بيبليوغرافية مهمة في هذا الصدد.

(**) كلية الآداب ــ تطوان (توفي الأستاذ عبد الله فيلال يوم 14 يناير 1999).

(1) ج. هرنشو، **علم التاريخ**، (ترجمة وتعليق ع. عبادي)، دار الحداثة، الطبعة I، بيروت، ص. 16، الطبعة I، 1988.

وبقدر الامكان ظاهرة الحاضر ؛ ولعل الباحث في التاريخ القديم بصفة خاصة، يجد نفسه معتمدا بدرجة كبيرة على هذا النوع الأخير من أدوات البحث، هذا دون إغفال الأدوات الأخرى، وأعني بها المصادر الأدبية.

وسنسعى في هذا المقال المتواضع إلى رصد أهم «أدوات ــ مصادر» الباحث في التاريخ القديم، والتي هي في نهاية الأمر أدوات كل باحث في التاريخ بصفة عامة، وإن اختلفت أهمية الاستعمال نزولا من الفترة الماقبل–تاريخية إلى الفترة المعاصرة.

من نافلة القول أن الباحث في التاريخ القديم، وكما ألمحنا إلى ذلك، يستند بالدرجة الأولى على علم الآثار، غير أن الاهتمام العالمي بالآثار لم يأخذ مجراه الطبيعي إلا عند نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي، فقبل هذا التاريخ كانت الاثار تفسر تفسيرا اسطوريا، ويتم النبش فيها للكشف عن أسرار سحرية أو عن كنوز فقط، وليس بهدف تفسير وجودها وهويتها.

وهكذا نجد آخر ملوك بابل «نابونيد» مثلا يأمر بالحفر في الأحجار الأساسية لمعبد كان يقدر تاريخ بنائه بـ 3200 سنة ليعرف مبلغ قدمه. من جانب آخر نجد إشارات عديدة عند بعض المؤرخين اليونان والرومان وكذا بعض الجغرافيين، ونذكر في هذا الصدد المؤرخ اليوناني ثوسديد (460 ــ 395 ق.م.)، وبوزنياص (من القرن II ب.م.)، بلين القديم (23 ــ 79 ب.م.) فيتروف (ق. I م.) الذين نوهوا في بعض كتبهم بعلم الاركيولوجيا.

وفي فترة الامبراطورية الرومانية نجد الامبراطور هادريان (Hadrien) من الشغوفين بالآثار، بل وينطلق في رحلات خارج الامبراطورية الرومانية للاطلاع على آثار العالم القديم، كما هو الشأن عندما زار رفقة زوجته مصر، غير أن الاهتمام بالآثار لم يرق دائما إلى المستوى المرجو بسبب عدم تقدير قيمتها التاريخية : فمن جانب، وبعد انتشار الديانات السماوية وتبنيها بصفة رسمية من طرف السلطات الحاكمة، أصبح ينظر إلى هذه الآثار كبقايا وثنية غير جديرة بالحفظ، وبالتالي يستلزم تدميرها ؛ من جانب آخر، فإن عمليات السطو التي لم تنقطع منذ القدم، والتي كان يحركها دافع البحث عن ثروات وكنوز مطمورة، كان يؤدي إلى تدمير تلك الآثار كليا أو جزئيا، وتهشيم «أنوف» التماثيل !، هذا، دون أن ننسى استعمال

حجارتها من طرف الاهالي في بناء مساكنهم، بل وحتى من طرف الحكومات (نموذج مصر في عهد محمد علي والمغرب حتى فترة متأخرة) لاقامة مشاريع عمومية، وذلك قبل ظهور مصالح لحفظ الآثار.

مع ذلك، يجب التنويه بعدد من المؤرخين المسلمين، كابن عساكر وابن النديم والمقريزي الذين اهتموا بالآثار، بل إن عبد اللطيف البغدادي وابن خلدون كانوا من الداعين لحفظ الآثار.

وكان من نتائج الاهتمام الجديد بالآثار عند مسيحيي عصر النهضة وعند المسلمين أن أيقظ عند العديد من الباحثين ضرورة الحفاظ عليها واستنطاقها لكشف وسبر أغوار الماضي. وهكذا، بعد فترة تطور طويلة ومحاولة استيعاب، انضاف إلى ميدان العلوم الحديثة، علم الاركيولوجيا أو علم الآثار والذي اصبحت له اليوم أساليبه وطرقه العلمية[2] ولاسيما مصادره المتنوعة، ومن هاته المصادر نذكر أولا :

المصادر المنقوشة (Sources epigraphiques)

قبل الاطلاع على وسائل العمل فيما يخص هاته المصادر، لابد من تحديد مغزى هذا المصطلح ودور هاته المصادر، فعلم النقوش (Epigraphie)، وهو مصطلح من أصل لاتيني (فوق = Epi + graphie = كتابة)، هذا العلم يُعنى بكل ما هو مكتوب على دعامة، فالنقيشة تجمع ما بين نص (texte) ودعامة (support) ؛ وقد تكون هذه الدعامة من رخام أو برونز أو حجر. ومن خلال النقائش المكتوبة يمكننا الاطلاع على الوسط الاجتماعي والتاريخي والاقتصادي للافراد والجماعات، بل وحتى على معتقدات الأشخاص وسيكولوجيتهم. وقد دأب علماء النقائش على تقسيمها إلى قسمين : عامة وخاصة، فالكتابات الخاصة، تشمل عادة تلك الكتابات الموجهة من أشخاص الى الآلهة أو إلى الاباطرة، ويمكن أن ندرج ضمنها تلك النصب التذكارية (Epitaphes) التي تخلد حدثا من الأحداث. أما فيما يخص

(2) بالطبع، هذا المقال، وكما يشير إلى ذلك عنوانه، هو مخصص للحديث عن بعض مصادر البحث التاريخي القديم، وبالتالي فإن الحديث عن الأساليب والطرق الحديثة لعلم الآثار قد يكون موضوع مقال خاص في مناسبة لاحقة إن شاء الله.

النقوش التذكارية العامة فتشمل المعاهدات الدولية المبرمة والقوانين وكذا الأوامر لتخليد بعض الأحداث المهمة.

أما فيما يخص لغة النقائش، فهي تختلف باختلاف المكان الذي عثر فيه على النقيشة ؛ وبالنسبة لشمال افريقيا الذي عرف تعايش حضارات متنوعة خلال فترات تاريخية طويلة على أرضه، فنجد هناك بعض النقائش الليبية والفنيقية، وقد نجد نقيشة تحمل الطابعين معا كنتيجة لتصاهر الحضارتين، أو نقيشة أصلية تعرفنا عليها من خلال ترجمة نص مترجم كنص رحلة حانون المترجم الى اللغة الاغريقية والذي عثر عليه بمعبد بعل – حمون بقرطاج. أما فيما يخص النقائش المكتوبة باللغة الليبية، فتكفي الاشارة في هذا الصدد إلى تلك النقيشة التي عثر عليها في موقع تمودة، وهي، كما أشار إلى ذلك ذ.م. غطيس في كتابه حول «تمودة»، عبارة عن قطعة من شاهدة رمادية اللون منحوتة في حجر الحث، وهي محفوظة بمتحف تطوان الأثري، لكنها في حالة سيئة[3].

وفيما يخص النقائش اللاتينية المتواجدة بكثرة في شمال إفريقيا بالنظر لطول فترة التواجد الروماني نسبيا بالمنطقة، فهي تنقسم عموما إلى قسمين : كتابة بأحرف بارزة وهي السائدة، ثم الكتابة المعروفة باسم «Acta» وهي التي تستعمل عادة لتدوين الوثائق الرسمية كلوحة الحماية (Patronat) ولوحة بناصة، والتي تنص على موافقة الاباطرة على منح حق المواطنة لأمير قبيلة الزغرنسيين يوليانوس (Julianus) وكذا لأفراد أسرته[4].

ويبقى المشكل العويص فيما يخص علم النقائش هو صعوبة الحصول على المادة الخام، فالوثائق غالبا ما نجدها مدمجة في أسوار المدن والمباني، وغالبا ما يتم العثور عليها بطريق الصدفة.

أما فيما يتعلق بوسائل العمل بالنسبة لهذا العلم، فالنقائش جمعت في عدة مدونات وكتب ابتداء من العقود الأخيرة من القرن الماضي، ويأتي على رأسها

---

(3) مصطفى غطيس، **تمودة**، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بتطوان، **1**، دون تاريخ، ص. 10.

(4) م.ع. الهجراوي، **من المصادر الاثرية لتاريخ المغرب، نماذج من معروضات المتحف الأثري بالرباط**، مجلة كلية الآداب بالرباط، ع. 19، ص. 164 واللوحات رقم 17 و 18.

«مدونة النقائش اللاتينية : C.I.L = Corpus inscriptionum Latinarum» والتي أصدرتها جامعة برلين مابين 1881 و 1916 مع الفهرس الذي نشر ما بين 1942 و 1955، وهي تتشكل من 17 مدونة، تهمنا منها المدونة الثامنة (C.I.L. VIII) التي تحتوي على نقائش افريقيا الشمالية، وقد نشرت تحت إشراف الأستاذ الكبير Mommsen ؛ بينما تولى احد تلامذته Dessau نشر كتاب بعنوان «نقائش ليبية مختارة I.L.S = Inscriptiones Latinae Selectae» جمع فيه أهم النقائش حسب مواضيعها بجانب فهرس خاص.

ويمكن استكمال ثقافتنا فيما يخص هذا المجال بالاطلاع على الدورية الفرنسية : «L'année épigraphique»، وهي نشرة تحوي كل النقائش التي عثر عليها خلال التنقيبات المتأخرة، وكذا على بعض المراجع المهمة كـ :

- L. Chatelain, A. Merlin et R. Cagnat : **Inscriptions Latines d'Afrique**, Paris, 1924.
- **Inscriptions antiques du Maroc** (ولا سيما منها) :
  - 1, **Inscriptions Libyques** (L. Galand), **puniques et néopuniques** (J. Fevrier) ; 2, **inscriptions latines** (M. Euzennat, J. Marion, J. Gascon), Paris, 1982.

المسكوكات :

يعتبر علم النميات (Numismatique) من المصادر الأساسية للاطلاع على مظاهر الحضارة الانسانية، ولاسيما بالنسبة للباحث في التاريخ القديم، فالنقود تلعب دورا مهما في التعرف على قوة اقتصاديات الدول القديمة والعلاقات التجارية الدولية، وكذا في تحديد تواريخ حكم الملوك أو الزعماء الذين ضربت في عهدهم وذلك من خلال تطور شكل هذه العملة، بل إنها تشكل أحيانا المصدر الوحيد والحاسم في التعرف على صور بعض الشخصيات المنقوشة عليها أو صور بعض المباني المندثرة. وفيما يخص الاهتمام بالنميات أو علم المسكوكات، فنجد أولى الاشارات عند بلين القديم، المؤرخ الروماني الذي عاش في القرن I الميلادي، وذلك من خلال كتابه «التاريخ الطبيعي» حيث يشير إلى الملك «كريسوس» الذي حكم ما بين 578 و 534 ق.م. بوضعه النماذج النقدية الأولى التي تحمل رموزا لها علاقة بالماشية على قطع من البرونز (Lango) وتسمى «As».

ومع بداية أوج روما خلال القرن III ق.م. ستأخذ هذه القطع وزنا قارا وشكلا منتظما، وحملت أيضا رموزا لحيوانات، وانشأ أول معمل روماني لسك النقود في نفس القرن ؛ وكانت القطع النقدية تحمل رموزا تجسد صور الالهة الرومانية مثل Mercure و Apollon. وكان ظهور القطع الفضية خلال النصف الأول من القرن III تقريبا، وكانت القطعة الفضية الواحدة (Denier) تساوي 10 As من البرونز، وفي عهد قيصر تبنت روما نظام النقد الذهبي (Aureus = 8,88 غ. من الذهب وهو يعادل 25 قطعة فضية).

ويتفق جمهور الباحثين أن افريقيا الشمالية عرفت النقود لأول مرة مع وصول الفنيقيين اليها ؛ وفيما يخص المغرب، فقد كانت هناك، كما أثبتت الابحاث الاركيولوجية والنمية، دور لضرب العملة حيث عثر في بعض المواقع على قطع نقدية تنتمي إلى مدن موريطانية (نسبة إلى مملكة موريطانيا القديمة) كانت تتمتع بالحكم الذاتي كطنجة وليكسوس وتمودة، بجانب تلك المضروبة في عهد ملوك موريطانيين كيوبا II وابنه، ونقود مضروبة في الخارج كاسبانيا ونوميديا[5]. أما ظاهرة كنز النقود، فهي قديمة قدم النقود نفسها، فهذا ليون الافريقي (حسن الوزان) يحدثنا عن الأشخاص الباحثين عن الكنوز، أو من يسميهم «بالكنزيين»، والذين يقودهم طمعهم الى البحث عن النفائس والثرات، ولو على حساب تدمير شواهد من الماضي قد لا تعوض. وقد ظهرت أولى التشكيلات النقدية عند الأوربيين خلال القرن 18 وبداية القرن 19، فكان أعضاء البعثات الديبلوماسية من قناصل وسفراء يستغلون تواجدهم بالبلدان الأجنبية، كما هو الشأن بالنسبة لمصر والمغرب، لتكوين سلاسل نقدية مهمة غذت إلى حد كبير مجموعات المتاحف الأوربية. ومع تركز الاستعمار الفرنسي ببلدان المغرب العربي توسعت الخزائن. وقد بدأ الاهتمام بالنقود في المغرب بشكل خاص مع بداية هذا القرن بعد العثور على أكبر كنز للنقود عام 1907 بموقع بناصة (سهل الغرب)، وهو كنز يعود للملك يوبا II ابن يوبا I، ويتكون من 4 آلاف قطعة فضية. ثم تلى ذلك تكون مجموعات متنوعة من السلاسل النقدية ترجع إلى فترات تاريخية ومواقع مختلفة.

---

(5) للمزيد من المعلومات، يمكن الرجوع إلى الهوامش 27 ــ 30 من كتاب ذ. م. غطيس المذكور أعلاه، حيث يورد بيبليوغرافية مهمة.

أما من الناحية التقنية، فيتم التعامل مع قطعة نقدية على الشكل التالي قصد استكناه أسرارها وما تختزنه من معلومات : فالمعروف أن أي قطة نقدية تتكون من وجهين : أمام وظهر (Avers وRevers) ؛ مثلا بالنسبة لقطعة نقدية رومانية نجد في الامام صورة الامبراطور محاطة بالتسمية الامبراطورية (Titulatum) بينما نقشت على الظهر الحروف التالية S/C وتعني «Senatus Consulto»، أي أن مجلس الشيوخ الروماني هو الذي أشرف على سك القطعة النقدية.

وفيما يتعلق بالدراسات لمتعلقة بهذا الجانب والخاصة بالشمال الافريقي، فيمكن إرجاع أول مقال حول الموضوع الى النصف الأول من القرن 19، ثم توالت المقالات، لكنها اتسمت بكونها قليلة ومتفرقة ؛ لكن وضع أول قائمة للنقود الموريطانية (نسبة الى مملكة موريطانيا) تأخر الى الستينات من القرن الماضي، ويمكن تفسير ذلك بصعوبة دراسة وقراءة ما على النقود من نقوش ورسوم، بل وندرة القطع المعثور عليها أصلا، الشيء الذي جعل الباحثين في هذا المجال ينطلقون في البداية من افتراضات في ظل ندرة المادة الخام. على أي، كان وضع أول قائمة للنقود والتي استمر العمل فيها من 1845 إلى غاية 1860، بمبادرة من عاهل السويد ؛ وما بين 1861 و 1862 أكمل Muller هذا العمل نسبيا باصداره لكتاب يحمل عنوان : **Numismatique de l'ancienne Afrique**، وذلك في أربعة أجزاء، خصص آخر مجلد منها لنقود موريطانيا ونوميديا، وقد عزز بملحق سنة 1874.

وسيرا على نهج هذا العالم، حاول باحثون آخرون تطوير أبحاثه وتجديدها، لكن افتقارهم لحس نقدي بناء وضعف امكانياتهم العلمية، جعل أبحاثهم مليئة بالأخطاء والتفسيرات اللامعقولة.

وأمام افتقار المكتبة لقائمة ذات صبغة علمية من حيث التصنيف والشمولية، انبرى عالم النميات الفرنسي J. Mazard إلى إصدار قائمة جديدة تحت عنوان : (مدونة النقود النوميدية والموريطانية) : **Corpus Nummorums Numidiae Mauretaniaeque**. وقد نشرت هذه القائمة بالجزائر عام 1953 ثم بباريس عام 1955. ومازالت هذه القائمة تعتبر من طرف الباحثين المختصين احسن ما يوجد بالساحة لحد الآن ؛ وقد أصدر المؤلف رفقة باحثين آخرين ملاحق لهذا العمل وذلك لمواجهة ما قد تأتي به التنقيبات المتأخرة، وذلك في مجلات متخصصة،

ولاسيما منها Revue numismatique، ثم مجالات أخرى ذات طابع عام مثل (B.A.M) Bulletin d'archéologie marocaine وهسبريس — تمودة (H.T.)

باقي المصادر الأثرية

الفخـار

لقد أدت التنقيبات الأثرية الى الحصول على كمية هامة من الفخار، فقد عثر على ملايين من الشظايا (Tessons) وعلى امفورات (جرار) كانت تستغل لأغراض متعددة : إما لنقل وحفظ السوائل (الزيتون والنبيذ)، كما عثر أيضا على أدوات منزلية، بالاضافة إلى قناديل فخارية.

وبجانب هذه الأدوات ذات الاستعمال اليومي، عثر على نوع من الفخار صنف في إطار فخار البذخ أو فخار الكماليات الذي كان يستعمل خلال المناسبات، وكان هذا النوع من الفخار يحمل اسم الفخار المختوم (ceramique) أي الذي يحمل نقشا وخاتم الشخص الذي قام بصنعه، وهو ما يشكل مادة اخبارية مهمة بالنسبة للباحث، حيث أن هذه الاختام تساعدنا في تحديد الأماكن التي صنعت فيها هذه الفخاريات، وعلى اعتبار أن هذه الأواني استعملها الانسان مع اختلاف الزمان والمكان، بل وتطورت أشكالها وأساليبها بتطور عقلية الانسان.

ولعل اقدم الأواني الفخارية التي عثر عليها بالمغرب هي تلك المعروفة باسم الخزفيات الكمبانية (نسبة إلى منطقة كمبانيا الايطالية) والتي كان يتم استيرادها من إيطاليا ما بين القرنين IV و I ق.م.، إلى جانب خزفيات محلية، مقلدة للخزفيات السابقة، عثر عليها لاسيما بموقع تموسيدا. هذا دون أن نغفل ذكر أن أقدم الجرار المعثور عليها هي جرار بونيقية كما أشار إلى ذلك الباحث Ponsich[6].

ولا ننسى الاشارة أيضا إلى مجموعة من الأدوات الأخرى كالقناديل ومواقد البخور الطينية التي ساعدت طرق التحليل الحديثة كالكربون 14 في تحديد عمرها، فهذا النوع من الأدوات يساعد على فهم ظروف عيش الانسان وجزء من معتقداته ؛ هذا إلى جانب التماثيل المختلفة الأحجام، والتي ولاشك كان مبدعوا الأواني الخزفية يتقنون صنعها، حيث عثر بالمغرب على سبيل المثال على تماثيل لملوك

(6) نفس المرجع، ص. ص. 19 — 31 الهامش 106.

موريطانيين كيوبا II وابنه بطليموس. لقد حاول هؤلاء الملوك تقليد الرومان الذين كانوا يجسدون أبطالهم الشعبيين وأباطرتهم بتماثيل تنصب بالساحات العمومية أو تعرض بالمنازل[7]، حيث كانت تلك التماثيل تحمل في الغالب نقوشا تفصح عن هوية اصحابها ومركزهم في هرم السلطة ؛ ونفس الشيء يمكن أن يقال عن تماثيل الالهة الرومانية، التي عبد المغاربة بعضها في الحقبة الرومانية أو حتى ما قبلها كالالـهة فينوس : Venus، وباخوس : Bacchus، وجوبيتر : Jupiter، وفُرتون : Fortune، وميركور : Mercure... الخ[8].

أما فيما يتعلق بوسائل العمل بالنسبة لهذا الجانب من البعث العلمي فتبقى محدودة، ويمكن الرجوع إلى بعض الأطالس كـ **Atlas archéologique de Tunisie** الذي وضعه كل من Merlin و Babelon و Cagnat، وذلك رغم النقص الملاحظ فيه مقارنة مع نظيره الذي خصصه س. غزيل للجزائر تحت عنوان : **Atlas archéologique de l'Algérie** (1902 — 1912). وبصدد المغرب يمكن الرجوع خاصة إلى مقالات **نشرة الاركيولوجية المغربية (B.A.M.)** المشار إليها أعلاه.

الفسيفساء :

تعتبر هذه المادة التي سخرت لتزيين أرضية المباني أو جدرانها، من الأدوات الهامة بيد المتخصصين للاطلاع على بعض أوجه الحضارة في منطقة شمال إفريقيا، لاسيما أثناء الحقبة الرومانية، حيث حمل المعمرون الرومان معهم عاداتهم التقليدية في تزيين بيوتاتهم وحماماتهم. وتبقى الفسيفساء، كما ذكرنا، مصدر الاطلاع على حياة الانسان القديم، حيث تصور تلك التزيينات بعض مظاهر الحياة اليومية كالحفلات والطقوس الدينية وأعمال الزراعة وبعض الأساطير التي تساعد على فهم تلك المظاهر بالذات. وفي هذا الصدد، يتميز موقع وليلي بوفرة عدد من «المنازل» (في الواقع انقاض) حملت اسماء مرتبطة بطبيعة الصور والأساطير التي

(7) م. ع. الهجراوي، **مرجع سابق**، ص. 155.

(8) هناك نماذج من هذه التماثيل موزعة بين بعض متاحق المملكة كمتحفي الرباط وتطوان. راجع في هذا الصدد المقال المذكور أعلاه ل. م. ع. الهجراوي، ص.ص. 152 — 153 (بخصوص المتحف الأثري للرباط)، وكذا بعض الأوصاف الكاملة لبعض تلك الالهة من طرف بعض الباحثين الأجانب، وذلك من خلال كتاب ذ. غطيس، **تمودة**، ص.ص. 34 — 35 والهوامش 122 — 124.

تجسدها الفسيفساء كمنزل «أعمال هرقل» ومنزل «Orphée»، فهاته الرسوم والتزينات هي بمثابة «فيلم» وثائقي حي ومجسم على الطبيعة يغني عن كل تعليق.

ويبقى الجدل قائما بين الباحثين عن مدى التأثير الروماني أو تأثير المدرسة الافريقية (تونس ونوميديا البروقنصلية ــ شرق تونس وجزء من الجزائر الحالية ــ) على باقي الشمال الافريقي وذلك في انتظار استكمال المدونات. ومع ذلك يجزم الباحثون المختصون بأن معلوماتنا في هذا المجال هي أحسن حالا من معلوماتنا بخصوص المنحوتات، ويمكن في هذا الصدد الرجوع إلى الدوريات والنشرات الاركيولوجية التي ذكرنا بعضها أعلاه، بجانب بعض المراجع ولاسيما منها :

Inventaire des mosaïques de la Gaule et de l'Afrique II et III, Paris 1910 – 1925.

والتي تبعتها ملاحق ترصد آخر ما أسفرت عنه التنقيبات المتأخرة، إلى جانب مراجع تُعنى بمظاهر الحياة. اليومية مثل : **La vie rurale en Afrique du Nord d'après la Mosaïque**، وهي دراسة من انجاز Canogne و Precheur.

ويمكن استكمال ثقافتنا في هذا المجال بالاطلاع على أعمال ذات صبغة جهوية أو محلية والتي تحفل بها المجلات والدوريات، والتي نكرر الاشارة إليها، فهي تورد أيضا عناوين المراجع الصادرة في هذا الصدد.

* * *

المصادر الأدبية

تشكل هذه المصادر عنصرا أساسيا، وأحيانا كثيرة وحيدا، لمعرفة أخبار افريقيا الشمالية في العهود القديمة. ومن نافلة القول أن البحث التاريخي الجاد لا يكتمل الا بتضافر المصادر الاركيولوجية والمصادر الادبية. وفي هذا الصدد نتوفر على بعض الترجمات لأدباء اغريق ورومان الذين اهتموا بالمنطقة، خاصة أثناء فترة ارتباطها بالصراع الفنيقي ــ الروماني بالمنطقة خلال القرنين III و II ق. م.، أو بالتواجد الروماني بالمنطقة.

وأقرب الترجمات الينا، هي تلك السلسلات التي تصدرها دور النشر الفرنسية : Belles-Lettres و Garnier، وهي دور نشر أخذت على عاتقها مهمة نشر أعمال المؤرخين والجغرافيين الكلاسيكيين مثل سطرابون، هيردوت، بلين

القديم، بطليموس، بومبونيوس ميلا(9)، وهي أعمال تختلف من حيث الاخراج وجودة التحقيق، فضلا على أن أعمال هؤلاء المؤلفين لم تصل دائما إلينا مكتملة.

ولابد في هذه العجالة، من الاشارة إلى أسماء ساهمت بدورها في التعريف بالمنطقة ونذكر منها : «حانون» صاحب الرحلة الشهيرة خلال القرن V ق.م. والذي تجاوز «أعمدة هرقل»، ثم Scylax الرحالة الافريقي الذي قام برحلته في منتصف القرن IV ق.م.

وبجانب هؤلاء الرحالة والجغرافيين، تجب الاشارة إلى هؤلاء الذين جمعوا بين التاريخ والجغرافية، ونذكر من بينهم، هيردوت، بوليب، ديودور الصقلي، ابيان، سالوست، وكذا بعض الافارقة، نذكر من بينهم القديس اغسطس وأبولي. ونستعرض هنا في عجالة أهم الجغرافيين والمؤرخين، مع تبيان أهم مؤلفاتهم.

1 - الجغرافيون :

ـ **سطرابون** : وهو اغريقي من القرن I ق.م. (ولد ما بين 25 و 21ق.م.). أهم مؤلفاته «الجغرافية» المتكون من 17 جزءا، يهمنا منها الجزء الأخير الذي يتحدث فيه عن بلاد «ليبيا» (أي الشمال الافريقي في عرف المؤلفين القدامى).

ـ **بلين القديم** : هو جغرافي روماني من القرن I الميلادي (23 ـ 79م)، ومن بين الذين لقوا حتفهم خلال ثوران بركان فيزوف الشهير عام 79م. وهو صاحب الكتاب المعروف «التاريخ الطبيعي» المتكون من 37 كتابا، لكن فقدت أجزاء كثيرة منها ؛ ويهمنا من كتابه الجزء الخامس الذي يتحدث عن شمال افريقيا.

ـ **بومبونيوس ميلا** : وهو مؤلف اسباني الأصل من القرن I الميلادي. صاحب كتاب «De chorographia» وهو عبارة عن وصف للعالم المأهول أنذاك ؛ ويظهر أن صاحبه زار شمال افريقيا وتعرف عليها مباشرة كما يظهر من خلال وصفه، فكتابه يحفل بمعلومات قيمة عن المنطقة.

---

(9) للاطلاع على بيبليوغرافية شاملة في هذا الصدد مع تبيان أهم السلسلات وأنجعها وكذا ترجمات المؤلفين مع ذكر أهم دور النشر، ننصح بالرجوع إلى الكتيب الذي أصدره P. Petit, Guide de l'étudiant en Histoire ancienne.

ـ بطليموس : الجغرافي الاغريقي الشهير، وهو من القرن II الميلادي، ويهتم كتابه الرابع با«حداثيات المغرب القديم».

2 - المؤرخون :

ـ هيردوت : الملقب بأب التاريخ. ولد ما بين 490 و 480 ق.م. بإحدى مدن آسيا الصغرى (هاليكارناس). وتوفي ما بين 430 و 420 ق.م. وهو صاحب الكتاب الشهير «التواريخ» الذي يتكون من تسعة أجزاء يهمنا منها جزآن : الثاني، والرابع خاصة والذي يتحدث فيه عن ليبيا وسكانها «الليبيين».

ـ بوليب : المؤرخ الاغريقي الشهير الذي عاش خلال القرن III ق.م. ويتألف كتابه المعروف «التاريخ العام» من 40 جزءا لم يصلنا منها إلا خمسة أجزاء، ويتحدث عن الفترة الممتدة من 272 إلى 146 ق.م.، أي أنه يغطي الحروب التي دارت بين روما وقرطاج والتي عرفت بالحروب البونيقية. هاته الحروب التي كان لها تأثير سلبي على استقلال المماليك الامازيغية بالشمال الافريقي، لاسيما وأن بوليب خصص الجزء الخامس من كتابه لروما وتوسعها في البحر المتوسط.

ـ ديودور الصقلي : مؤلف من القرن I ق.م. له كتاب بعنوان «المكتبة التاريخية» يتناول فيه تاريخ الشعوب المتحضرة وتوسع روما في حوض البحر الأبيض المتوسط.

ـ سالوست : المؤرخ والسياسي الروماني الشهير (86 ق.م. ـ 36 ق.م.) وهو صديق يوليوس قيصر، حيث استعان به في حملاته العسكرية على شمال افريقيا، بل وعين اليامزودا بجميع السلط على ولايات افريقيا الجديدة (Africa Nova) [وهي الجزء النوميدي الواقع غرب تونس والذي كان خاضعا للملك الامازيغي يوبا I والذي انتزع منه بعد معركة «طابسوس» سنة 46ق.م.]. والمؤلف هو صاحب الكتاب المعروف «حرب يوغرطة»، ويصف فيه الحرب التي خاضتها روما ضد الملك النوميدي الطموح يوغرطة بين سنتي 111 و 105ق.م. وذلك في سياق الاحداث والحروب الاهلية التي كانت تعرفها روما من أجل الظفر بالسلطة. ويتضمن الكتاب فضلا عن الموضوع الرئيسي ـ أي حرب يوغرطة ـ معلومات

جغرافية وتاريخية تختلف من حيث قيمتها ومدى صحتها[10].

ـ **تيث ليف** : وهو مؤرخ روماني من القرن I ق.م. لم يتبقى من كتابه المعروف «تاريخ روما» والذي كان يتألف من 42 جزء إلا 35 جزءا، وتتحدث الكتب من 21 إلى 35 عن الحرب البونيقية الثانية. إذا، فالمؤلف يشكل مصدرا إضافيا لتسليط الضوء على هذا الصراع التاريخي بين قرطاج وروما.

* * *

خـلاصـــة

هؤلاء إذن، هم أهم المؤلفين الكلاسيكيين الذين تناولوا بالتحليل جغرافية وتاريخ المنطقة، والأكيد أنه من الواجب أن ننبه إلى ملاحظة طالما نبه إليها الباحثون المتمرسون، وهي أنه على طلبتنا المبتدئين أن يكونوا حذرين في تعاملهم مع هاته المصادر الأجنبية، والتي قد تحفل أحيانا بمواقف متحيزة أو متعصبة لوجهة نظر معينة، ولنا في نموذج سالوست خير مثال. فكتابه هو عبارة عن مرافعة لصالح روما تبرر تدخلها في المنطقة خلال حربها ضد الملك النوميدي يوغرطة، وبالتالي استيلائها على مملكته.

والأكيد أن المؤلفين الاستعماريين الأوربيين المعاصرين، ولاسيما منهم المؤلفين الفرنسيين على اختلاف مهامهم ومسؤولياتهم، لا يحيدون عن نهج أسلافهم القدامى رغم تطور أساليب البحث التاريخي ومناهجه، بل إنهم استغلوا هاته الأساليب الحديثة لتفسير فشل المشروع الروماني لاحتلال شمال افريقيا بسبب «تخلف» شعوب المنطقة وعدم قدرتها على استيعاب الدور الحضاري لروما. كما سعوا إلى التأكيد باستمرار على أن دور فرنسا هو إحياء المشروع الروماني و «إدخال» المنطقة من جديد في دائرة «الحضارة» بعد أن كانت «ضحية» الاسلام وهجمة بني هلال والاحتلال العثماني»[11].

---

(10) للمزيد من المعلومات، انظر ترجمة ذ. التازي سعود لمؤلف سالوست، **حرب يوغرطة**، منشورات كلية الآداب بفاس، الطبعة I، 1978.

(11) العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، منشورات المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص. 25 انظر أيضا، م.م. العرباري، **البربر عرب قدامى**، منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، سلسلة الدراسات 6، ص.ص. 22 ــ 26.

ولا تفوتنا هنا الاشارة إلى أهمية الرحلات الأوربية التي شُدت إلى المنطقة، لاسيما خلال القرن الماضي، بفعل الطفرة العلمية والصناعية التي شهدتها أوربا أنذاك، وحاجتها إلى أسواق جديدة لتصدير فائض انتاجها الصناعي، فضلا عن الرغبة في التعرف على عوالم جديدة.

لقد شكلت دول شمال إفريقيا قبلة مفضلة لهذه الرحلات في ظل حنين مُنظري الدول الاستعمارية لاحياء مجد روما والتي استمر استعمارها للمنطقة حوالي ستة قرون قبل الفتح الاسلامي. فلنقرأ ما كتبه الناشرين Didot و Firmin وهما يقدمان مشروعهما حول «تاريخ إفريقيا القديم» سنة 1844 : «لا أحد منا، وهذا رأينا جميعا، يمكنه من الآن فصاعدا أن يبقى غير مبال، وهو يقرأ الوقائع التي تذكر بعظمة بلاد الجزائر القديمة، حيث استأنفنا من جديد، ولمصلحة الحضارة الانسانية، وبمجهودات بطولية مشروع أسلافنا الرومان»[12].

ولكن هذا لا يعني أنه علينا أن نتعامل مع كل المؤلفات، وكتب الرحلات خاصة التي وضعت المنطقة، انطلاقا من هذه الخلفية الايديولوجية، فهناك بعض كتب الرحلات كمؤلفات الرحالين البريطانيين Shaw و Bruce، التي وصفت سكان وعادات وبعض مآثر المنطقة من وجهة نظر محايدة، وإن اختلفت القيمة العلمية لتلك المؤلفات. فالأهم في نظرنا هو عدم التركيز على هذا الجانب الايديولوجي الاستعماري ومحاولة ترصده، سواء تعلق الأمر بكتب الرحلات أو بمؤلفات الموظفين الاستعماريين القناصل والعسكريون خصوصا) — مع الاشارة الخفيفة بالطبع إلى خلفيات هذه التآليف — ؛ وهي عملية على حد تعبير الأستاذ م. المؤذن : «لو تعد من الجدة بمكان»[13]، بقدر ما يهم الجانب العلمي منها، وإلا كان علينا إقصاء كل عمل أجنبي كأعمال س. غزيل وغوتييه وكاركوبينو التي فتحت لنا الطريق للبحث في تاريخ المنطقة القديم وكذا آثارها، إضافة إلى أعمال الاثنوغرافيين والانثربولوجيين والسوسيولوجيين، الخ...

إن تحرير تاريخ المغرب، على حد تعبير الأستاذ العروي، لا يتم بمجرد الكشف

---

(12) Février P.A. **Approches du Maghreb romain**. منشورات Al Kalam، I الرباط، ص. 24.

(13) م. المؤذن، **البوادي المغربية قبل الاستعمار**، منشورات كلية الآداب بالرباط، سلسلة رسائل واطروحات، **رقم 25**، الرباط، 1995، ص. 22.

عن الخلفيات الاستعمارية لمؤلفين مثل غوتييه، غزيل وتيراس، وإن كان شيئا ضروريا، بل عن طريق تبني مشروع، يشمل دراسة الوثائق المتنوعة بدءاً من الاستوغرافية المغربية نفسها والمحيط الطبيعي، مع التحلي بذهنية نقدية صارمة في إطار عمل جماعي كذلك الذي ميز دعاة التاريخ الشامل بفرنسا، وعلى رأسهم المؤرخ الفرنسي الراحل ف. بروديل، مع ما يتطلبه هذا المشروع من إحداث مؤسسات، كمعهد وطني للحفريات، وإقرار دراسة اللهجات والتعامل مع الاكترونيات[14] ؛ وذلك، لعمري، مشروع طموح من الصعب تحقيقه كليا في الظرف الحالي، وإن كانت بعض ملامحه قد أرسيت بالفعل خلال السنوات الأخيرة.

(14) م. العروي، **مرجع سابق**، ص. ص. 19 — 21.